أحمد بهجت

من جواهر القرآن الكريم



للنشر والتوزيع والتصدير
١٦ شارع كامل صدقى - الفجالة - القاهرة
ت ٥٩١١٣٧١ - فاكس ٥٩١١٣٧١ - ص.ب ١٧٠٧ القاهرة

مقدمة

هذه الأوراق تأملات فى جواهر القرآن، وكل القرآن كنوز وجواهر، ولكن هناك آيات تلفت انتباه الذهن، أو توقظ القلب فيتوقف عندها مبهورا معلق الأنفاس، ويحس بها إحساسا خاصا.

وهذه الأوراق ـ التى نقرأها معا فى شهر رمضان هما ثمرة هذا الاحساس.. لم أتأمل وحدى فى القرآن..

اهتديت بشروح ثلاثة من المفسرين الكبار.. القرطبى ومحمد عبده والشيخ الطنطاوى جوهرى.

أما القرطبى فهو تفسير كلاسيكى قديم، وهو يقدم لنا كيف فهم العرب هذه الآيات حين نزلت،

ويحكى لنا الأحداث التى أدت لنزولها وأسباب النزول، كما أنه يشرح آيات القرآن بالقرآن.. وأحاديث الرسول والصحابة.

أما الشيخ محمد عبده فلم يكتمل تفسيره فى المنار، وتوقف عند الجزء العاشر ثم وافاه الأجل المحتوم، رحمه الله تعالى ، أما تفسيره فيعتبر فاصلا بين التفسيرات الكلاسيكية والتفسيرات الحديثة، وهو يميل إلى العلم، ويفسر بعض المعجزات تفسيرا علميا يصعب قبوله على إطلاقه، لأن المعجزة هى فى نهاية الأمر خرق للقانون، وليس القانون الذى خلقه الله تعالى بقانون على الله، إذ يحكم القانون طلاقة المشيئة الإلهية

﴿ إنما أمره إذا أراد شيئا أن يقول له كن فيكون ﴾

أما تفسير الشيخ طنطاوى جوهرى فهو تفسير حديث يهتم كثيرا بآيات العلوم ويلفت الذهن إلى

الآيات الكونية وينعي على المسلمين تقصيرهم فى تحـصــيل هذه العلوم وتأخـرهم بالتــالى فى ترتيب البشرية.

وقـد كـان منهـجى هو قـراءة تفـسيـر هؤلاء الأئمـة وكتابة انطباعي عن نفس الآية.

إن شهر رمضان "كريم" لأن القرآن نزل فيه، والقرآن كنز من الكرم الإلهى الذى لاتنفـد عطاياه ولا تنقص جـواهره بالإحـسـان قـال تعـالى فى الحـديث القـدسى: "كان الإحسان قصدى من الخلق".

أحمد بهجت

١

﴿ كيف تكفرون بالله وكنتم أمواتا فأحياكم ثم يميتكم ثم يحييكم ثم إليه ترجعون ﴾

الآية ٢٨ من سورة البقرة.

يسأل الله تبارك وتعالى سؤال استذكار وتوبيخ للذين كفروا بآياته فى الموت والحياة، يسألهم كيف يكفرون بالله وكانوا أمواتا فأحياهم.

إن الإنسان يعرف له بداية ونهاية.. بدايته هى الميلاد ونهايته هى الموت. وكل إنسان يخضع لهذا القانون راضيا أو كارها..

أين كان الانسان قبل ميلاده؟

لقد كان عدما إذا نظرنا إليه بمعيار الوعى، أيضا لم يكن له وجود إذا نظرنا إليه بمعيار المادة.. والموت

صورة من صور انعدام الوعى والمادة.. وإذن كان الإنسان ميتا قبل نشأته، ثم أحياه الله من خلال لقاء الآباء بالامهات، هذا يعنى أن حياتنا على الأرض هى حياتنا الأولى، أما موتنا على الأرض فهو موتتنا الثانية... وهذه هى دورة الإنسان.. موت وحياة، ثم موت وبعث كان الانسان ترابا ميتا قبل ظهوره على الأرض، ثم يجيء البعث فى الحياة الثانية.

تأمل قول الناس يوم القيامة

﴿ قالوا ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل.. ﴾.

إن هناك من ينكر البعث كما يحدثنا الله

﴿ وأقسموا بالله جهد ايمانهم لا يبعث الله من يموت، بلى وعدا عليه حقا ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾.

إن الذين ينكرون بعث الأجساد بعد موتها يغفلون

عن تجربة مرت بهم شخصيا، تجربة كانوا موتى فيها ثم بعثهم الله فى حياتهم الأولى على الأرض.. كيف ينكر الإنسان تجربة مرت به شخصيا وكيف يشك فيما وقع له هو نفسه؟!...

صحيح أننا لا نذوق الموت إلا مرة واحدة، هى المرة التى تقع على الأرض بعد أن نفقد نعمة الحياة ، وهذا من رحمة الله بالخلائق ، أن جعلهم لا يذوقون الموت إلا مرة واحدة.. وجعل بشارة أهل الجنة انهم

﴿ لايذوقون فيها الموت إلا الموتة الأولى ﴾.

كيف يكفر الانسان بالله وهذا شأن الكريم الرحيم معه؟ كيف يكفر الإنسان بالله بينما حياته وموته تعاقبا عليه وهو ينظر؟

٢

﴿ وإذا قلتم ياموسى لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة فأخذتكم الصاعقة وأنتم تنظرون، ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون ﴾

٥٥ من سورة البقرة

قال الشيخ محمد عبده إن طائفة من بنى إسرائيل قالوا: لماذا اختص الله موسى بكلام الله تعالى دوننا، وانتشر هذا القول، وتجرأت جماعة منهم بعد موت هارون وهاجوا على موسى وبنى هارون وقالوا لهم: أن نعمة الله على شعب إسرائيل هى لأجل إبراهيم وإسحق، فتشمل جميع الشعب، وقالوا لموسى لست أفضل منا فلا يحق لك أن تترفع وتسود علينا بلا

مـزية واننا لا نؤمن لك حـتى نرى الله جـهـرة، فأخذهم إلى خيمة العهد حيث صعقوا..

نلاحظ هنا أن مـعـاندة بنى اسـرائيل لأنبـيـائهم وجحودهم كانت أسلوب حياة لهم ولعل جريمتهم الكبرى ـ التى عبر عليها الشيخ محمد عبده سريعا ـ هى أنهم اشترطوا للإيمان أن يروا الله..

وهذه هى مـقـولة الكافرين فى كل زمـان ومكان، أنهم يريدون أن يروا الله أولا، ثم يؤمنون بعد ذلك..

إنهم يتجاهلون آيات الله فى الكون وفى أنفسهم، ويتجاهلون المعجزات الهائلة التى أنقذهم بها الله من فرعون وجنوده، مثل شق البحر وعبورهم، وحمايتهم من الشمس بالغمام، وإطعامهم بالمن والسلوى، انهم يتجاهلون هذا كله ويعلقون إيمانهم على رؤية الله. . وهم يطلبون الرؤية من باب العناد والجحود، لا من باب الحب والشوق..

إن موسى عليه الصلاة والسلام طلب الرؤية

﴿ قال رب أرنى أنظر اليك ﴾ وكان طلبه قمة حب تسأل المحال وهى تعرف أنه محال، أما هؤلاء فكان طلبهم قمة فى سوء الأدب والاجتراء على الله.

يحدثنا النص القرآنى أنهم صعقوا وهم ينظرون، ثم بعثهم الله بعد موتهم لعلهم يشكرون.. وقد ذهب الشيخ محمد عبده الى أن المراد بالبعث هو كثرة النسل فى أبنائهم وأحفادهم، أما هم فقد ماتوا، وهذا التفسير لا يتفق مع ظاهر الآيات، فنحن أمام معجزة يحاول محمد عبده تفسيرها بعيدا عن مجال المعجزة، يؤيد هذا قوله تعالى

﴿ ثم بعثناكم من بعد موتكم لعلكم تشكرون" ولو كان الأمر متعلقا بأبنائهم لقال النص "لعلهم يشكرون ﴾..

وهذا هو رأى جمهور العلماء.

٣

﴿ إن الذين آمنوا والذين هادوا والنصـــارى والصائبين من آمن بالله واليوم الآخر وعمل صالحا فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾
"الآية ٦٢ سورة البقرة".

هذا النص يتحدث عن معاملة الله سبحانه وتعالى لكل الفرق والأمم التى آمنت بالله واتبعت نبيا من الأنبياء

هؤلاء جميعا فى رحمة الله، إن المؤمنين من المسلمين واليهود والنصارى والصابئين جميعا عند الله سواء.. طالما أنهم يؤمنون بالله، واليوم الآخر، ويتبعون نبيهم، ويعملون الصالحات، ويصدقون بقية

الأنبياء.. هؤلاء جميعا فى موضع القبول عند الله.. لماذا ورد النص على هذه الحقيقة الكلية؟

لأن قوما من اليهود والنصارى وغيرهم اعتبروا ديانتهم هى وحدها الديانة الصحيحة... ونظروا لبقية الديانات نظرة شك.. وانساقوا مع هواهم العنصرى وحكموا به.

"وقالت اليهود ليست النصارى على شىء، وقالت النصارى ليست اليهود على شىء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم

يقول الشيخ محمد عبده أن الكلام عن معاملة الله تعالى لكل الفرق أو الأمم المؤمنة بنبى يوحى إليه من السماء.. إن الله تعالى يقول ان الفوز لا يكون بالجنسيات الدينية، وانما يكون بإيمان صحيح له سلطان على النفس، وعمل يصلح به حال الناس، ولذلك نفى أن يكون الأمر عند الله بحسب أمانى المسلمين أو

أمـانى أهل الكتـاب من النصـارى أو اليـهـود.. والحديث يقـول :"ليس الايمان بالتـمنى.، ولكن مـاوقـر فى القلب وصدقه العمل".

أما الشيخ الطنطاوى جوهرى فيفسرها كالتالى:

من كـان منهم على دينه قـبل أن ينسخ مـصـدقـا بالمبدأ والمعاد، عاملا بمقتضى شرعه فلهم أجرهم على ايمانهم، ولا خـوف عليـهم حين يخـاف الكفـرة من العقاب.

هذه الآية الكريمة تفك الاشـتبـاك بين أهل الأديان المختلفـة، وتقـول لهم أن العـبـرة ليـست بالجنسـيـة أو العنصرية، إنما العبرة بأداء كل قوم لشريعتهم، واحترام الأنبيـاء السـابقين عليـهم واللاحقين لهم، والقيـام بما أوجبـه الله على أهل كل دين، ولئن كـان الأنبـيـاء يختلفون فى شرائعهم أحيانا طبقا لتطور البشرية، إلا أنهم يتفقون معا على أنهم بعثوا من إله واحد.. لا شريك له.. وسـوف يقف أتبـاعـهم جـمـيـعـا بعـد بعث الموتى للحساب أمام هذا الإله الواحد سبحانه.

٤

﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهى كالحجارة أو أشد قسوة، وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار، وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء، وإن منها لما يهبط من خشية الله، وما الله بغافل عما تعملون ﴾

٧ سورة البقرة.

نزلت هذه الآيات فى اليهود ، ورغم كونها موجهة إلى اليهود ، إلا أنها تنطبق على كل قوم قست قلوبهم، إن العبرة فى التفسير بعموم اللفظ لا بخصوص السبب.

والآية تتحدث عن قوم قلوبهم كالحجارة أو أشد قسوة..

متى تقسو القلوب؟

يجيب الشيخ محمد عبده أنها تقسو حين تنطفىء فيـها أنوار الفطرة فـلا تتأثر بالحكم والمواعظ.. وهذا صحيح.

وفى تصورى أن هناك علاقة بين القلوب والإيمان.

وهذه العلاقة قانون مطرد، إذا زاد الإيمان فى القلب رق القلب وصـفـا، فـإذا نقص الإيمان فى القلب عـرف القلب طريقه لقسوة أشد من قسوة الحجارة..

يحدثنا الله تبارك وتعالى أن من الحجارة مايتفجر منها الأنهار، كما أن منها مايشقق فيخرج منه الماء، وأن منها مايهبط من خشية الله.

هل تشعر الحجارة؟ هل تحس؟

إن النص يؤكد أنها تشعر وتحس، وإن كان مظهرها الجامد لا يوحى بذلك، إن معنى هبوط الحجارة من خشية الله، أن الحجارة تشعر بخالقها وتحس بوجدها وتنهار رغم صلابتها من خشيته..

حين سأل موسى ربه الرؤية قال له الحق: لن ترانى، ولكن انظر إلى الجبل فإن استقر مكانه فسوف ترانى، فلما تجلى ربه للجبل جعله دكا وخر موسى صعقا" لقد انهار الجبل من خشية الله حين تجلى عليه، وليس الإنسان فى قوة الجبل أو صلابته، ورغم عظمة الجبل وقوته، إلا أنه انهار ساجدا من هيبة الحق وأنوار قدسه.

أيجوز أن تشعر الحجارة بالله، ويقسو قلب الإنسان فلا يشعر بالخشية من الله. إن الله يحذر ذوى القلوب الجامدة بقوله:

﴿ وما الله بغافل عما تعملون ﴾ والتحذير يعنى أن قسوة القلوب عمل اختيارى للانسان، فالقلب يقسو كلما ابتعد عن الله أو فرط فى الايمان أو أوغل فى المعصية.

٥

﴿ ولتجدنهم أحرص الناس على حياة، ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة، وماهو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾

سورة البقرة٩٦.

نزلت هذه الآيات فى بنى اسرائيل، وقد قالوا أن لهم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس، فنزل قوله تعالى:

﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين، ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ ثم وصف الحق حرصهم على الحياة، حتى أن الواحد منهم

يود أن يعيش ألف سنة...

إن الآيات نزلت لسبب خاص هو ادعاء بنى إسرائيل وأكاذيبهم بأنهم أبناء الله وأحباؤه وأن لهم الدار الآخرة.. وإضافة إلى ذلك تقدم الآيات معيارا يمكن به قياس الإيمان فى كل عصر ومصر.. وفى كل مكان وزمان.. إن هذا المقياس هو الموت.. هو القدرة على النظر فى وجه الموت دون خوف ان المؤمن بالله يعرف أن الموت ينقله إلى الله تعالى، وهذه نقلة لا تخيفه ولا ترعبه، إنما يرحب بها، فجوار الله تعالى أكرم من جوار البشر.. وحنان الله تعالى على عباده أعظم من الموت عند المؤمنين ليس رعبا، وليس نهاية ينسدل عندها الستار على الحياة فلا يرفع أبدا، إنما هو انتقال من دنيا لا تخلو من الاحزان والآلام إلى نعيم مقيم جوار أكرم الأكرمين.

لقد تحدى الله تعالى اليهود أن يتمنوا الموت، كما

أنه حدد ملامح المشركين بالرغبة فى الحياة إلى الأبد، لأن المشرك لا يؤمن بالحياة الآخرة، والألف عند العرب كما يقول الشيخ محمد عبده هى منتهى العدد، وبالتالى فهى تعبير عن المبالغة..

معيار الإيمان إذن هو الرغبة فى الآخرة وعدم الخوف من الموت، وقد تحدث الرسولﷺ عن قلوب قذف فيها الوهن، فلما سئل عن معنى الوهن قال حب الدنيا وكراهية الموت..

إن كثرة البقاء فى الدنيا لن تزحزح الكافرين أو المشركين من العذاب، بل العكس، إنهم يزيدون رصيدهم من عذاب الآخرة، كلما مكثوا يكسبون السيئات فى الدنيا.

٦

﴿ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات، بل أحياء ولكن لا تشعرون ﴾

"سورة البقرة ١٥٤".

يقـرر الله تبـارك وتعـالى فى هذه الآية حـقيـقـة، ويدفع شبهة.. أما الحقيقة فهى أن الذين يقتلون فى سبيل الله ليسوا أمواتا.. وإنما هم أحياء.. أما الشبهة التى يدحضها فهى فكرة موتهم..

﴿ ولا تقولوا لمن يقتل فى سبيل الله أموات بل أحـيـاء ولكن لا تشـعـرون" دعنا نتـوقف أمـام قـوله سبحانه " ولكن لاتشعرون ﴾..

إن الشعور الإنسانى مقيد بالحواس.. والحواس الإنسانية قاصرة، ولا ترى إلا ماتراه الأعين..

أحيانا نرى الشهيد وقد نسف فى الجو نسفا، وأحيانا تخترق السيوف صدره فيسقط مضرجا فى دمائه، وأحيانا تأكله السباع أو الأرض.. كل مانراه هنا صورة ظاهرة وليست هى الحقيقة.

إن الله يحدثنا أن الشهيد لا يموت..

ينقل الشيخ محمد عبده مايقوله بعض النأس من أن حياة الشهداء تتعلق بأجسادهم وإن فنيت هذه الأجساد أو احترقت أو اكلتها السباع أو الحيتيان.

وينقل ماقاله البعض أنها حياة لا نعرفها، وقال البعض ان أرواح الشهداء تسكن طيورا خضراء تسرح فى الجنة وتأكل من ثمارها..

وهذا كله محاولة بشرية لتفسير حقيقة حدثنا عنها الله، وإذا كنا لا ندرى كيفية هذه الحياة، إلا أننا

نصدق الله ونؤمن بما قاله الحق.. وفى آية أخرى يؤكد الحق ماقاله:

﴿ ولا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتا بل أحياء عند ربهم يرزقون ﴾.. ونص على الرزق لأنه علامة ظاهرة من علائم الحياة..

بعيدا عن كل التفسيرات البشرية.. يقول لنا الله وهو أصدق القائلين إن الشهيد لا يموت إذا قتل فى سبيل الله.

هذا يعنى أن الوحيد الذى ينجو من الموت كما نعرفه نحن البشر هو الشهيد فى سبيل الله..

هذا هو الإنسان الوحيد الذى يفلت من الموت.. وهذا هو الاستثناء الوحيد لإنسان لا يموت..

إنسان يظهر لنا بصورة الموتى، وإن كانت حقيقته تعيش بحياة كريمة عند ربه.

٧

﴿ بديع السمـاوات والأرض وإذا قضى أمرا فـإنما يقول له كن فيكون ﴾

سورة البقرة ١١٧

أبدع الله السماوات والأرض

هو بديع السماوات والأرض سبحانه..

الإبداع فى لغـة العـرب يعنى ايجـاد الشىء على غـير مـثال سبق، وهو لا يقـتـضى وجود المادة.. أمـا الخلق فمعناه التقدير، وهو يقتضى شيئا سبق وجوده ليقع فيه التقدير..

كيف يبدع الحق سبحانه؟

هذا سؤال حارت فيه العقول والأفئدة، ثم هدانا الحق للجواب فقال إنه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون.

إن مجرد توجه المشيئة الإلهية لأمر ماكاف لتحقق هذا الأمر.. تأمل قوله تعالى :

﴿ ثم استوى إلى السماء وهى دخان فقال لها وللأرض ائتيا طوعا أو كرها قالتا أتينا طائعين.. ﴾

قبل ذلك كان عرشه على الماء.. أبدع العرش سبحانه وأبدع الماء سبحانه وأبدع كل شيء فخلقه على غير مثال سبق..

ونحن نعرف الآن من تقدم العلوم عن عظمة الله ماكان يجهله أهل القرون الأولى، نعرف أن السماوات تمتلىء بالنجوم، وتسمى المجرات، ونحن لا نعرف عدد المجرات فى السماء ولا نعرف عدد النجوم.. رغم تقدم

علم الفلك واكتشافاته الجديدة..

عرفنا من تقدم العلوم أن النجوم شموس بعيدة، وانها انفجارات نووية مستمرة تتحطم فيها الذرات، ونعرف ان الضغط عند مركز الشمس قدره ٤٠ ألف مليون ضغط جوى، ونعرف أن درجة الحرارة فى مركز الشمس تصل إلى ٤٠ مليون درجة فهرنهيت..

يقول عالم الفلك السير جيمس جينز اننا لو سخنا قطعة معدنية من النقود إلى درجة حرارة الشمس (وهذا مستحيل) فان حرارة هذه القطعة من النقود كافية لأن تجعل كل كائن حى على بعد آلاف الأميال يحترق ويذوى من الحرارة.

٨

﴿ ليس البر أن تولوا وجوهكم قبل المشرق والمغرب، ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر والملائكة والكتاب والنبيين وآتى المال على حبه ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب وأقام الصلاة وآتى الزكاة والموفون بعدهم إذا عاهدوا والصابرين فى البأساء والضراء وحين البأس أولئك الذين صدقوا وأولئك هم المتقون ﴾

سورة البقرة ١٧٧.

ويرى الشيخ الطنطاوى جوهرى أن هذه الآية جمعت

محاسن الدين وأموره كلها، ولذلك ورد عن رسول الله ﷺ قوله: " من عمل بهذه الآية فقد استكمل الايمان".

إن الآية تبدأ بالنعى على الذين يحصرون الدين فى الخلافات والخصومات عن القبلة، كان النصارى يولون وجوههم فى الصلاة نحو المشرق، واليهود يتجهون نحو بيت المقدس، بينما يتجه المسلمون نحو الكعبة، وكانت كل جماعة ترى أن قبلتها هى الصحيحة، فأراد الله أن يقول لهم أن مجرد تولية الوجه نحو قبلة مخصوصة ليس هو الخير المطلوب.. وهذا رأى الشيخ محمد عبده.. وهو يرى أن الآيات نزلت بعد تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة، وهو موقف أثار جدلا ونزاعا، فأراد الحق أن يبين للناس أن الدين أعمق من أن يكون مجرد صلاة بلا روح، أو اتجاه نحو قبلة معينة، إنما الدين مسألة مركبة

وهذا هو الجانب العقائدى النظرى، ثم يأتى بعده جانب اقتصادى يتمثل فى إنفاق المال على ذوى القربى واليتامى والمساكين وابن السبيل والسائلين وفى الرقاب، ثم يأتى بعد ذلك جانب خلقى يتمثل فى الوفاء بالعهد، والصبر والشكر على أيام الدنيا بحلوها ومرها..

إذا استكمل المسلم هذه الجوانب فهذا هو البر المطلوب، والبر كلمة جامعة تعنى الخير كله.. وهى اسم جامع لكل الطاعات وأعمال الخير التى تقرب الإنسان من الله، وتدخله فى رحمته..

يريد النص القرآنى أن يصرف المسلمين عن الوقوف عند ظواهر الأشياء، ويريد أن يصرفهم عن الخلافات التى تثور حول المظاهر، فأينما يولى الإنسان وجهه فثم وجه الله. سبحانه.

٩

﴿ وإذا سألك عبادى عنى فإنى قريب أجيب دعوة الداع إذا دعان، فليستجيبوا لى وليؤمنوا بى لعلهم يرشدون ﴾ سورة البقرة ١٨٦.

روى أن أعرابيا جاء إلى النبى ﷺ وسأله.

أقريب ربنا فنناجيه أم بعيد فنناديه؟ فأنزل الله تعالى هذه الآية.. وتعنى الآية أن الله قريب من عباده، ليس بينه وبينهم حجاب ولا ولى ولا شفيع ولا واسطة.

وقد اختلف العلماء كما يقول الشيخ محمد عبده فى معنى القرب، قالوا انه القرب بالعلم، وقالوا انه

القرب بالذات، واختلف السلف مع المتكلمين كما اختلف هؤلاء مع الصوفية.

وقد أوقع فى مصيدة الخلاف محاولتهم معرفة كيفية القرب، وهذه المحاولة لا تنتهى إلى شيء، لأنها سر من أسرار الحق سبحانه وتعالى.. ولعل أفضل ماقيل فى هذا الصدد ماقاله محمد بن عبدالجبار النفرى العارف بالله حين قال، القرب الذى تعرفه مسافة، والبعد الذى تعرفه مسافة والله هو القريب البعيد بلا مسافة.

يحدث الله عباده أنه قريب منهم، وفى آية أخرى يحدثهم أنه أقرب إليهم من حبل الوريد، وحبل الوريد أقرب شيء للإنسان لأنه جزء من دمه، والله أقرب إلى عباده من دمائهم إليهم.

أيضا يستحث الله عباده أن يطلبوه ويسألوه، وينبئهم أنه يجيب دعوة الداعين إليه، بلا واسطة من

ملك مقرب أو نبى مرسل أو ولى عابد، لقد ضل أقوام كثيرون جعلوا بينهم وبين الله شفعاء ووسطاء، فحجب عنهم الشفعاء والوسطاء نور الحقيقة الإلهية، وأوردوهم موارد الهلاك.. إن الانسان لا يستطيع أن يلقى وزيرا أو أميرا أو رئيسا إلا بعد اجراءات ورسميات، ولكن رب العالمين سبحانه وملك الملوك يفتح أبوابه لكل من يسأله أو يدعوه، ولا يجعل لهذا إجراءات أو رسميات.. لا يجعل لهذا شرطا سوى الاستجابة له والإيمان به والتوكل عليه.

ورد فى الحديث الشريف ان الإجابة تكون بأمر من ثلاثة، إما أن يعجل الله للإنسان ماسأل، وإما أن يدخر له دعوته ليوم القيامة؛ وإما أن يكف عنه من السوء مثلها.

١٠

﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالاثم وأنتم تعلمون ﴾ سورة البقرة ١٨٨.

تحدث الشيخ محمد عبده عن بلاغة الآية فى النهى عن أكل المال بالباطل، وضرب أمثلة لذلك، من ذلك تحريم الصدقة على القادر على الكسب، وكذلك تحريم الربا لأنه أكل لأموال الناس بدون مقابل من صاحب المال المعطى، ويدخل فى هذا الباب التعدى على الناس بغصب المنفعة، بأن يسخر بعضهم بعضا فى عمل لا يعطيه عليه أجراً أو ينقصه من أجره، وكذلك كل ضروب الغش والاحتيال كما يقع فى تزيين السلع الرديئة والبضائع المزجاة.

وجملة القول أن أكل أموال الناس بالباطل يتحقق فى كل أخذ للمال بغير رضا من المأخوذ منه، أو لجهل أو وهم، مثال ذلك قراءة القرآن بالأجرة لاجل الموتى أو دفع ضرر الجن أو غيره من الأحياء.

كل هذا يدخل فى أكل أموال الناس بالباطل.. وقد ذكر الشيخ محمد عبده الكلام مجملا، ثم بين نوعا منه خصه الله بالنهى..

قال تعالى: ﴿ وتدلوا بها إلى الحكام ﴾، أى ولا تلقوا بها إلى الحكام رشوة لهم.

﴿ لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾.

إن أكل أموال الناس بالباطل هو فساد فى المجتمع، ولكنه فساد يمكن للحاكم إصلاحه، فإذا ارتشى الحاكم، كان معنى هذا أن الفساد قد دب فى الرأس نفسه، وهذا هو الفساد الذى لا يمكن إصلاحه..

يقول الشيخ محمد عبده إن الحق لا يتغير بحكم الحاكم، وإن الحاكم عبارة عن شخص العدل الناطق بحق كل واحد، فإذا نطق بغير الحق خطأ اتباعا لهواه أو استلاما للرشوة خرج عن حقيقته ومعناه.

إن اهتمام الآية بتحريم أكل المال بالباطل ورشوة الحكام يضع يدنا على اهتمام الإسلام بسلامة المجتمع الاقتصادى.

لايكفى أن يصلى المسلمون ويصومون فى نفس الوقت الذى يشيع فيه الفساد وينتشر أكل أموال الناس بالباطل، وتزيد رشوة الحكام ... إن العبادات والمعاملات فى الإسلام ليست منفصلة، إنما هما شىء واحد متصل.. فاذا دب الفساد فى جزء منه توقف عمل بقية الأجزاء وانهار أداء المجتمع كله.

١١

﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾ سورة البقرة ٢٤٥.

تبدأ الآية بقولها: ﴿ من ذا الذى ﴾، وهو تعبير بهذا الضرب من الاستفهام، المستعمل للإكبار والاستعظام، كما يقول المفسرون.

تأمل قوله تعالى: ﴿ من ذا الذى يشفع عنده إلا بإذنه" وتأمل قوله سبحانه : ﴿ قل من ذا الذى يعصمكم من الله ﴾.

إن الله سبحانه وتعالى، وهو مالك الملك، وهو الغنى الحميد، وهو صاحب خزائن الدنيا والآخرة.. إن الله الجليل العظيم يقول فى هذه الآية:

﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسنا ﴾.

إن الله لم يكتف بتسميته اقراضا، والتعبير عنه بهذا الاستفهام حتى قال : ﴿ فيضاعفه له أضعافا كثيرة ﴾.. ذلك أن الإقراض هو أن تعطى انسانا شيئا من المال على أن يرد إليك مثله، فالتعبير بالإقراض يعنى أن القرض لايضيع، وليس هذا بكاف فى الترغيب الذى يقتضيه الحال هنا فصرح الحق بأنه لايرد مثله، بل يرده أضعافا مضاعفة من غير تحديد.

إن البذل الذى يحض عليه الله هنا - فى رأى الشيخ محمد عبده - هو البذل للدفاع عن الدين وإعلاء كلمته وحفظ حقوق أهله.. حسبك أن الله تعالى جعل هذا البذل بمثابة الإقراض له، وهو الغنى عن العالمين الذى له ملك السموات والأرض ومابينهما سبحانه.

ورد فى الأثر أن الفقراء عيال الله وأحب الناس

إلى الله أنفعهم لعياله.. ويرى الشيخ محمد عبده أن الحث على الإنفاق فى هذه الآية يراد به الانفاق فى المصلحة العامة.. فالفقراء عيال والله يعولهم بأيدى الأغنياء، ويعول الأغنياء بتوفيقهم لأسباب الغنى..

يرى الشيخ محمد عبده أن استخدام الحق لهذا التعبير هو بمثابة زلزال لقلوب المؤمنين. وأى قلب لايلين له ويندفع إلى البذل والعطاء هو قلب لم يمسه الإيمان، ولم تصبه نفحة من نفحات الرحمن، أى قلب لايتأثر هنا هو قلب يخلو من الخير ويفيض بالشر.. أى لطف يدانى هذا اللطف من الله تعالى بعباده..؟ أما نهاية الآية فتذكر الإنسان بأن الله هو الذى يقبض الرزق ويبسطه فى النهاية، فمقاليده بيده، وإليه يرجع الناس للحساب.

١٢

﴿ يأيها الذين آمنوا انفقوا مما رزقناكم من قبل أن يأتى يوم لابيع فيه ولا خلة ولا شفاعة، والكافرون هم الظالمون ﴾ سورة البقرة ٢٥٤.

يأمر الله عباده بالإنفاق.. ويحذرهم من يوم سوف يأتى عليهم لا محالة، وهو يوم لابيع فيه والبيع يقترن بالكسب، فهو يوم لا كسب فيه كما أنه يوم لا خلة فيه، والخلة هى القرابة أو الصداقة أو المحبة، نحن فى يوم لاشىء فيه من هذا كله، كما أنه يوم لاشفاعة فيه لأحد.

أى يوم هذا...

هذا يوم القيامة.. لقد ذهبت أيام الدنيا بما فيها من كسب وحب وشفاعة، وجاء يوم الآخرة حيث لاشىء من

هذا كله، إنما هو يوم حساب عما فات.. ثم يختتم الحق الآية بقوله: ﴿ والكافرون هم الظالمون ﴾ ويقول الشيخ محمد عبده أن الظلم والكفر فى القرآن يتواردان على المعنى الواحد، فيطلقان تارة على مايتعلق بالاعتقاد، وتارة على مايتعلق بالعمل، ومنه الحكم بين الناس، ومنه كفر النعم وعمل السيئات، وهذا الظلم والكفر مما يتهاون فيه المسلمون فى هذه الأزمنة وماقبلها لظن الناس أن جميع ما فى القرآن من وعيد للكافرين يراد به الكافرون بالمعنى الخاص فى اصطلاح الفقهاء والمتكلمين، وهم الجاحدون للالوهية أو النبوة، وهذه الآية تبطل ظنهم هذا.

إن الكفر والظلم فى العمل لا يقلان عن الكفر والظلم فى الاعتقاد ، ومنع الانفاق لا يتفق مع الإيمان الصحيح والدين الخالص من الشوائب.. والمراد بالإنفاق فى هذه الآية هو الإنفاق الواجب، لأن الكلام يتضمن

الوعـيـد على التـرك، وهو لا يكون إلاعلى ترك الواجب.

ومن الواجب على أغنياء المسلمين إذا وقع الفساد فى الأمـة وتوقـفت إزالتـه على المال أن يبـذلوه لدفع المفاسد الفاشية ولحفظ الحياة العامة.. (أ هـ)

يأمـر الله إذن بالانفـاق، ويحـذر النـاس من يوم لا يقدرون فيه على مـافرطوا وبخلوا، فلا بيع توفون به دينكم، أو تفتدون بثمنه نفوسكم، ولا أخلاء أو أحباء أو أقرباء تفزعون إليهم، ولا أصدقاء تستصرخونهم. ولا شفعاء يشفعون لكم..

إن الإنسـان مـعـروف بشـح نفـسـه.. ومـن يوق شح نفسه فـقد نجا وأفلح ، علمـا بأن المنفقين ينفقون مما رزقهم الله، وهذه إشارة لها معناها..

١٣

﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضاة الله وتثبيتا من أنفسهم كمثل جنة بربوة أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين، فإن لم يصبها وابل فطل، والله بما تعملون بصير ﴾ سورة البقرة ٢٦٥.

تتحدث الآية عن انفاق التطوع.. وهو إنفاق تكون فيه النية الداخلية هى مرضاة الله تعالى، ويصور الله قلب المنفق بإخلاص بأنه مثل جنة مرتفعة تسقط عليها الأمطار فيزيد ثمرها ضعفين.. وهذا حال من ينفق بإخلاص،، ان خيره دائم وبره لاينقطع، أما قوله تعالى: ﴿ والله بما تعملون بصير ﴾ فإشارة إلى أن الله لايخفى عليه المخلص من المرائى.

وقد تحدث الله تبارك وتعالى عن إنفاق الصدقة فقال:

﴿ ان تبدوا الصدقات فنعما هى، وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير ﴾

البقرة ٢٧١.

وقد استدل العلماء من هذه الآية على أن إخفاء الصدقات افضل من اعلانها حرصا على ستر حال الفقراء وتكريما لهم، واستبعادا لأى رياء أو إعلان.. وقد ورد فى الحديث الشريف " أن صدقة السر تطفىء غضب الرب" كما أشارت الآية القرآنية إلى أن الله يكفر السيئات بالصدقات، وقد ورد ذكر الفقراء مطلقا فى الآية فاستدل العلماء على جواز عطاء الصدقة للفقراء بغض النظر عن عقيدتهم أو ديانتهم.

ويميز الشيخ الطنطاوى جوهرى بين صدقة التطوع وصدقة الفرض، فيرى أن الإخفاء فى صدقة التطوع أفضل من الإعلان، أما صدقة القرض فإظهارها

افضل، لما فى ذلك من حث الناس عليها.

روى عن فاطمة الزهراء بنت رسول الله ﷺ أنها كانت تعطر الدينار والدرهم قبل أن تضعه فى يد الفقير، لأنها سمعت رسول الله ﷺ يقول:

ـ إن الدينار يقع فى يد الله قبل أن يقع فى يد الفقير..

إذا صفت نية المتصدق، وخرجت صدقته مرضاة لرب العالمين فما جزاؤه..؟

إن الله يعده بتكفير الذنوب، ويعتبر ذلك قرضا حسنا، قال تعالى فى سورة التغابن:

﴿ إن تقرضوا الله قرضا حسنا يضاعفه لكم ويغفر لكم ﴾.

١٤

﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولاهم يحزنون" سورة البقرة٢٧٤.

تتحدث هذه الآيات عن الكرماء الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله ليلا ونهارا وسرا وعلانية.

ولقد قدم الله سبحانه الليل على النهار، وهى اشارة لتفضيل صدقة السر على صدقة العلن، وإن كان الجمع بين السر والعلانية يقتضى أن يكون لكل منهما موضع تقتضيه الحال وتفضله المصلحة.

وقد أفهم الله المسلمين حقيقة مالك المال، إنه هو الله ، فقال تعالى ﴿ وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾.. كما أن الله خسف بقارون الأرض وهو أغنى الأغنياء لانه قال: ﴿ إنما أوتيته على علم عندى ﴾

فأثبت جهده ونفى حقيقة كون المال هبة من الله وفتنة ليرى كيف يتصرف فيه الأغنياء.

وقد وعد الله المنفقين سرا وعلانية بأجرهم عند ربهم، وأضاف الأجر لنفسه وفى ذلك مافيه من التكريم.. أيضا نفى الله عن المنفقين الكرماء أى خوف أو حزن يوم يرى البخلاء أهوال بخلهم.. وهذا تفسير الشيخ محمد عبده، أما الشيخ الطنطاوى جوهرى فيرى أن مسألة المال هى الشغل الشاغل للنوع الإنسانى.. فالمال هو السبب فى اشتعال الحروب، وبه تقوم الممالك وتنهار.

وقد حض القرآن الكريم على الإنفاق والإخلاص فيه.. ويرى الشيخ الطنطاوى جوهرى أن الإنفاق فى النفع العام مطلوب، وسبيل الله هو تعليم أبناء الأمة كى يزيد عدد المتعلمين فى الصناعات والزراعات والسياسات.. وكل عمل يزداد ثوابه بازدياد نموه

وارتقاء نتائجه.

والإخلاص عنده مهم، وهو يضرب مثلا على عدم الإخلاص فيقول أن البلاشفة لايهمهم الاخلاص، لقد أخذوا الأرض قسرا من أصحابها، فانهارت الزراعة لأن الفرد الحر يعمل وينتج أضعاف الفرد المستعبد المستبد به..

والقرآن يحض المسلم على الاخلاص فى انفاقه، شاعرا أن المال مال الله وأن الأرض لله، فليعطه للصالح العام حبا فى الارتقاء وليس خوفا من السيف، وليضع المسلم أمام عينيه قول الحق تعالى:

﴿ وما أنفقتم من شىء فهو يخلفه.. ﴾..

صدق الله العظيم.

١٥

﴿ زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا والله عنده حسن المآب ﴾

آية ١٤ من سورة آل عمران.

تجمع هذه الاية كل متاع الدنيا وشهواتها فلا تترك منها شيئا.. وهى تبدأ بقول الحق ﴿ زين للناس ﴾ والتزيين هنا مبنى للمجهول فنحن لا نعرف من الذى زين؟

ولقد توقف القرطبى عند هذا السؤال، وحدثنا أن الناس اختلفوا فيمن زين، فقالت فرقة أن الله هو الذى زين ذلك بالإيجاد والتهيئة والانتفاع، وقالت فرقة إن الشيطان هو الذى زين، وتزيين الشيطان بالوسوسة

والخديعة وتحسين أخذها من غير وجوهها، وتقبل الاية الرأيين معا وهى على كل الوجهين وعظ لجميع الناس.

ويرى آخرون أن الآية تشير إلى تركيب الناس الفطرى الذى يتضمن هذا الميل إلى الشهوات.. وهذا جزء من تكوين الانسان لاحاجة إلى إنكاره أو استنكاره فى ذاته فهو ضرورة للحياة كى تستمر وتنمو.. والتعبير لايدعو لكراهيتها إنما يدعو فحسب لمعرفة طبيعتها وبواعثها ووضعها فى مكانها الصحيح.. وهو مكان تتضاءل فيه إذا قورنت بما عند الله.

لقد وضع فى فطرة الناس وزين لهم حب الشهوات من النساء والبنين .. والقناطير المقنطرة من الذهب والفضة، بهذه العبارة الأخيرة تتحدث قيمة كل هذه الشهوات، إنها متاع مؤقت فى حياة محدودة لا تطيب

كلها لأحد ولا تصفو لأحد، إنما هى مزيج من الصفو والعكارة.

هنا يدرك المؤمن أن كل ماذكرته الآية من متع الدنيا وشهواتها وقف على الحياة الإنسانية، وهى حياة مؤقتة ومحدودة وتنتهى بالموت حيث يخرج الانسان من الدنيا عاريا كما يولد عاريا، ولهذا يستتلى النص القرآنى قائلا " قل أؤنبئكم بخير من ذلكم، للذين اتقوا عند ربهم جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها وأزواج مطهرة ورضوان من الله والله بصير بالعباد.

١٦

﴿ الذين يقولون ربنا إننا آمنا فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ﴾

١٦ آل عمران.

بعد أن استعرض الله تعالى شهوات الدنيا ورغائبها المشتهاه، أنبأ الناس أن لديه خيرا من ذلك للمتقين، جنات تجرى من تحتها الأنهار خالدين فيها، أن نعم الدنيا مؤقتة، أما نعيم الآخرة فهو خالد.. ولعل هذه الإشارة الموحية إلى متاع الدنيا المحدود المؤقت، ونعيم الآخرة غير المحدود والخالد، لعل هذه الإشارة تكفى لكى يختار الإنسان على علم.

إن الذهب كما يقول القرطبى كلمة مشتقة من الذهاب والفضة كلمة مشتقة من الانفضاض أو

التفرق، وهذا يعنى أن القناطير المقنطرة من الذهب والفضة لايبقيان لأحد مهما طال عمره وامتدت ثروته...

إن أعظم الأغنياء فى الأرض لا يأخذ شيئا معه إذا انتهت حياته وحملوه إلى قبره.

بعد أن تحدث الله عن نعيم المتقين رسم صورة لهم.. واختار مايقولونه باعتبار أن هذا القول إشارة إلى عملهم ونواياهم..

﴿ الذين يقولون ربنا إننا آمنا.. فاغفر لنا ذنوبنا وقنا عذاب النار ﴾.

هذا القول يكشف عن القضية التى تشغلهم. إنها قضية الإيمان.

لقد آمنوا بالله وصدقوه، وهم يطلبون مغفرة ذنوبهم ويتوسلون أن يقيهم من عذاب النار..

هذا حال المتقين مع ربهم، وهى الحال التى أهلتهم

لتلقى رضوانه والفوز برضاه..

وفى دعائهم ماينم عن تقواهم فهم يعلنون إيمانهم ويطلبون العفو والمغفرة.

يفسر القرطبى ﴿ فاغفر لنا ذنوبنا ﴾ بأن الغفر هو الستر، فهم يقولون "أستر علينا ذنوبنا".. ويستطرد إلى بيان الذنوب التى يجب التوبة منها، وكيف ان فيها مايتعلق بحقوق الله، وفيها مايتعلق بحقوق العباد، وفيها ما فيه قضاء، وفيها ماليس فيه قضاء.. ثم ينتهى إلى وجوب أداء حق الله وحق الغير معا، ولئن كان الله يعفو عن حقوقه سبحانه، فإن البشر ليسوا مثل هذا الكرم.

١٧

﴿ إن الله اصطفى آدم ونوحـا وآل ابراهيم وآل عمران على العالمين ﴾ آية ٣٣ سورة آل عمران..

تقرر الآية حقيقة اصطفاء الله، وتحصره فى شخصين هما آدم ونوح، وفى أسرتين هما آل ابراهيم وآل عمران.

والاصطفاء هو الاختيار.. والله تعالى هو الذى اختار النبيين الكريمين آدم ونوحا، واختار الأسرتين آل ابراهيم وآل عمران.. ويختلف اختيار الله تعالى أو اصطفاؤه عن اختيار البشر، يختار البشر بعلمهم المحدود القاصر، ويصطفى الله بعلمه المحيط الشامل..

والاختيار هنا يعنى التكريم بحمل الرسالة

وإبلاغها للبشر..

لماذا يختار الله إنسانا ولا يختار إنسانا آخر؟ وماهى معايير هذا الاختيار..؟

يختار الله أفضل البشر لحمل رسالته..

يعلم الله مزاياهم قبل التكليف بالرسالة، ويعلم إخلاصهم بعد التكليف بالرسالة.. وقد كرم الله تعالى آدم بخمسة أشياء كما يقول القرطبى.. (١) خلقه بيده (٢) علمه الأسماء كلها (٣) أمر الملائكة أن يسجدوا له (٤) أسكنه الجنة (٥) جعله أبا للبشر..

أما نوح فقد كرمه الله كذلك واصطفاه بخمسة أشياء (١) جعله أبا للبشر فى عصره، لأن الناس غرقوا فى الطوفان ولم يبق سوى ذريته ومن حمل معه فى الفلك المشحون (٢) أطال عمره فقد عاش نوح يدعو قومه ألف سنة إلا خمسين عاما (٣) استجاب دعاءه على الكافرين وأهلكهم (٤) حمله على

السـفـينة ونجاه ومن آمن معـه (٥) كـان أول من نسخ الشـرائع له. أمـا آل ابراهيم وآل عـمـران فـقـد وقع الاصطفاء أو التكريم عليهما بوصفهما اسرتين، وبعض الروايات تذكـر أن عـمــران من آل ابراهيـم، وهو إذن تخصيص لهذا الفرع بمناسبة عرض قصة مريم وعيسى عليهما السلام..

ومن المعـروف أن الاصطفـاء الإلهى يجـرى على قاعدة محكمة، وهى أن وراثة النبوة والبركة فى بيت مـا أو أسـرة مـا، ليـست وراثة الدم، وإنما هى وراثة العـقـيـدة.. إن نوح سـأل الله عن ابنه الكافـر فـقـال له الحق:

﴿ يانوح إنه ليس من أهلك، إنه عمل غير صالح ﴾.

١٨

قال تعالى

﴿ الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾

١٩١ آل عمران.

يصف الله حال قوم مؤمنين رضى الله عنهم ورضوا عنه.. سبحانه..

هؤلاء القوم هم الذين يذكرون الله فى كل حال وفى كل أمر، يذكرون الله وهم قيام، وهم قعود، وهم يتقلبون فى فراشهم، إن النص القرآنى يقدم على سبيل المثال لا الحصر حال هؤلاء القوم.

إنهم يذكرون الله على كل حال، وفى كل حال..

والذكر عند هؤلاء ذكر متصل بالفكر، ليس ذكرا

يشغل الحواس الظاهرة وإنما هو ذكر يتأمل ويتفكر فى خلق السماوات والأرض

﴿ ربنا ماخلقت هذا باطلا سبحانك فقنا عذاب النار ﴾.

إن التأمل فى إعجاز هذا الكون يوحى لأولى الألباب أن وراء تقديراً وتدبيراً، وأن فيه حكمة وغاية، وأن هناك حقا وعدلا وراء كل مايجرى فى الكواكب والنجوم والافلاك والمجرات..

لقد أمر الله عباده أن يذكروه، قال تعالى:

﴿ فاذكرونى أذكركم ﴾.

هذا يعنى أن من يذكر الله تعالى يذكره الله تعالى، وليس بعد هذا المجد شرف..

هذه القلوب الموصولة بالله، تعرف أن العبثية فكرة دخيلة على الكون، وليست واردة فى خلق السماوات والأرض او خلق نملة تدب على الأرض..

ثمة حكمة إلهية وراء كل مايجرى، كما أن هناك

حكمـة إلهـيـة وراء حـرية الإنسـان وقـدرته على الفعل، ولما كانت الدنيا تغص بكثير من الظلم، فلابد من يوم يتــحــقق فــيــه العــدل، ويحكم الله بين المتخاصمين فيما كانوا فيه يختلفون..

هناك يوم للقيـامـة إذن، وهو يوم تبـرز فيـه النار مثلما هو يوم تتزين فيه الجنة.. وإذن يدعو أصحاب القلوب الموصولة بالله أن يقيهم من عذاب النار.. هذا هو الخاطر الأول الذى يرد على أذهانهم حين يتفكرون فى خلق السماوات والأرض.. وهم يدفعون هذا الخاطر بالدعاء..

١٩

﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته، وما للظالمين من أنصار ﴾

١٩٢ آل عمران..

هذا هو التوسل الثانى للذين يذكرون الله قياما وقعودا ، وعلى جنوبهم ويتفكرون فى خلق السماوات والأرض.. ويحسون أن الله لم يخلق الأكوان والانسان عبثا أو باطلا وانما هو الحساب فى النهاية ، وهى الجنة أو النار..

إن أول توسل يرد على خاطرهم.. دعوة لله..

﴿ فقنا عذاب النار ﴾ بعد هذه الدعوة يعودون الى التوسل ﴿ ربنا إنك من تدخل النار فقد أخزيته ﴾

لم يقولوا فقد آلمته أو عذبته، إنما قالوا ﴿ فقد أخزيته ﴾ تشى عبارتهم بأن خوفهم من النار هو قبل

كل شيء خوف من الخزى والإهانة التى تلقح بمن يدخلها، وهو خوف فيه حياء من الله الذى أكرم الانسان بالعقل والوعى والإرادة.

﴿ ربنا إننا سمعنا مناديا ينادى للإيمان أن آمنوا بربكم فآمنا، ربنا فاغفر لنا ذنوبنا وكفر عنا سيئاتنا وتوفنا مع الأبرار ﴾.

هذا هو التوسل الثالث .. للذين يذكرون الله ويتفكرون فى خلق الأكوان إن قلوبهم مازالت تتجه الى الله بالدعاء.

هذه المرة يكشف الدعاء عن حقيقة النوايا.. لقد سمعوا مناديا ينادى للإيمان (هو رسول الله صلى الله عليه وسلم)، فآمنوا، وهم يسألون الآن ربهم أن يغفر لهم ذنوبهم ويكفر عنهم سيئاتهم ويتوفاهم مع الأبرار، بعد خوفهم من النار، صاروا يطمعون فى حشرهم مع الأبرار...

﴿ ربنا آتنا ماوعدتنا على رسلك ولا تخزنا يوم القيامة إنك لاتخلف الميعاد ﴾ هذه هى الحركة الرابعة فى الدعاء، وهى بوعد الله الذى لايخلف الميعاد، ويأملون ألا يخزيهم الله يوم القيامة، يأملون ألا يبعدهم عنه، وألا يغضب عليهم أو يمقتهم.. هذا مايشغلهم..

بعد هذه الدعوة جاء قول الله تعالى

﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض، فالذين هاجروا وأخرجوا من ديارهم وأوذوا فى سبيلى وقاتلوا وقتلوا لأكفرن عنهم سيئاتهم ولأدخلنهم جنات تجرى من تحتها الأنهار ثوابا من عند الله، والله عنده حسن الثواب ﴾.

٢٠

قال تعالى: ﴿ مايفعل الله بعذابكم إن شكرتم وآمنتم وكان الله شاكراً عليما ﴾

١٤٧ سورة النساء.

هذه الآية ترد على الذين يرسمون صورة للإله وقد أوقد نار جهنم وراح يلقى فيها بخلقه، وهو سؤال يفيض بالجمال والرحمة، وهو استفهام انكارى كما يقول الشيخ محمد عبده، وهو استفهام ينفى فيه الخالق الرحيم انه يعذب احداً من عباده تشفياً منه او انتقاماً بالمعنى الذى يفهمه الناس من الانتقام البشرى.. تعالى الله علوا كبيرا على ذلك..

إن الله يقول لعباده إن الله لا يطلب منهم سوى الشكر والإيمان ويتضمن السؤال قدرا رحبا من المنطق..

ماهى المنفعة التى تعود على الحق سبحانه وتعالى من عذاب الناس؟

إن الله تبارك وتعالى يرتفع على حسابات الفائدة والمنفعة، كما يتعالى على حسابات الخسارة والضرر.. إن عبادة العابدين لاتزيد فى ملكه ذرة، وكفر الكافرين لا ينقص من ملكه ذرة..

لامعنى إذن لعذاب البشر لو شكروا وآمنوا، وهذا ما يريده الله لعباده أن يرتفعوا لمستوى الإيمان والشكر..

هل فى هذا مايشق على الناس؟

إن الله يمنح رضاه مقابل الإيمان والشكر، ولا مصلحة له سبحانه فى تعذيب العباد أو الانتقام منهم،

انما هى الرحمة الحانية التى شاءت تكريم الخلق فأبى أكثر الناس إلا كفورا.. إنما ينتقم الله من المجرمين والكافرين.. بعد هذا السؤال الاستفهامى الإنكارى يكشف الحق طرفا من كرمه ورحمته فيقول :

﴿ وكان الله شاكرا عليما ﴾.

كيف يشكر الله عباده على طاعته، بينما الطاعة نعمة منه سبحانه، كيف يمنح الله النعمة ثم يشكر الناس على قيامهم بحقها ؟

نحن أمام بحر من بحار الكرم الإلهى، بحر لا نهاية له ولا قاع، إن رب العرش الكريم شاء أن يشكر الناس على إسلام وجوههم لله وحمد قلوبهم له.. قال تعالى : ﴿ وإذ تأذن ربكم لئن شكرتم لأزيدنكم ولئن كفرتم إن عذابى لشديد ﴾.

٢١

﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه، قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السماوات والأرض ومابينهما وإليه المصير ﴾

١٨، سورة المائدة

هذه الآيات فى مناسبة تفصيلها أن الرسولﷺ حذر قوما من اليهود بعقاب الآخرة، فقالوا له:ـ

لاتخوفنا يامحمد.. نحن أبناء الله وأحباؤه.. فأنزل الله عز وجل فيهم هذه الآية:

﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه ﴾.. زعم اليهود والنصارى أن لله تعالى

أبوة. على تصور من التصورات. إن لم تكن أبوة الجسد فهى أبوة الروح، وهى أيا كانت تلقى ظلالا على عقيدة التوحيد كما يقول مفسر الظلال.. كما تلقى ظلالا على الفصل الحاسم بين الألوهية والعبودية، هذا الفصل الذى لاتستقيم الحياة إلا بتقريره.. ولا يستقيم التصور الإيمانى إلا بوضعه فى الاعتبار.

كان زعم اليهود والنصارى أنهم يرتبطون بالله ارتباطا خاصا، وبالتالى فإن الله لن يعذبهم ولن يدخلوا النار، فاذا دخلوا فلن يمكثوا الا أياما معدودات..

كان معنى كلامهم أن عدل الله لا يأخذ مجراه ، وأنه يحابى فريقا من عباده فيتركهم يفسدون فى الأرض ثم لا يعذبهم عذاب المفسدين الآخرين وجاءت الآية تقرر حقيقة موقفهم كعبيد ويخضعون

للحساب.. والعقاب على ذنوبهم ..

﴿ قل فلم يعذبكم بذنوبكم ﴾.. إن الحديث هنا يتناول الحياة ويمتد لما بعد الحياة، حيث اليوم الآخر، إنهم يتعذبون فى الدنيا بذنوبهم ويوم القيامة يعذبون أيضا.. ﴿ بل أنتم بشر ممن خلق ﴾ هذه هى حقيقة وضعهم فى الدنيا والآخرة.. إنهم بشر ممن خلق يجرى عليهم عدل الله كما يجرى على البشر..

﴿ يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ الأمر متعلق بمشيئته ومشيئته حرة طليقة تعرف من الذى يستحق العقاب ومن يستأهل الرحمة

﴿ولله ملك السماوات والأرض ومابينهما وإليه المصير﴾..

٢٢

﴿ من أجل ذلك كتبنا على بنى إسرائيل أنه من قتل نفساً بغير نفس أو فساد في الأرض فكأنما قتل الناس جميعا، ومن أحياها فكأنما أحيا الناس جميعا ﴾ ٣٢ المائدة. لماذا كتب الله هذا المبدأ على بنى إسرائيل؟ وهل هو حكم عام أم أمر يختص بهم وحدهم؟

كتب الله هذا المبدأ على بنى إسرائيل فى زمانهم لأنهم كانوا يمثلون أهل التوحيد يومئذ، وكانوا يقيمون التوراة بينهم بغير تحريف، فلما تجاوزوا حدودهم ولجوا فى طغيانهم وسفكهم للدماء، كتب الله عليهم هذا الحكم.. وهذا الحكم رغم نزوله على بنى إسرائيل إلا أنه حكم عام.. لأن القتل إزهاق لنفس بشرية، واعتداء على حق الله الذى خلق الحياة ومنحها لعباده، واعتداء على حق القتيل فى الحياة، مثلما أنه اعتداء على حق الجماعة الإنسانية كلها.

وقد اشتهر بنو إسرائيل بقتلهم للصالحين والأنبياء

والذين يأمرون بالعدل، ومن ثم فقد انطبق عليهم هذا الحكم، وصار حكما عاما يطبق على كل قاتل يقتل نفساً بغير ذنب أو جريرة.بهذا الحكم تحمى الشريعة أول حق من حقوق الإنسان وهو الحق فى الحياة.

وبهذا الحكم جعل الله قتل نفس واحدة يساوى قتل النوع البشرى كله، كما جعل من أحياها كأنما أسدى خدمة للنوع البشرى كله.

كيف يكون إحياء النفس؟

إن الدفاع عنها وعن حقها فى الحياة إحياء لها، وتمريضها وعلاجها إحياء لها، والقصاص ممن يتعدى حدود الله ويقتل نفسا هو إحياء لبقية الأنفس وصيانة لحقهم فى الحياة.

روى عن ابن عباس أنه فسر هذه الآية فقال فى معناها أن من قتل نبيا أو إماما عادلا فكأنما قتل الناس جميعا.. وقال مجاهد فى تفسيره لها أن من قتل نفسها مؤمنة متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه واعد له عذابا عظيما.

٢٣

﴿ ياأيهــا الذين آمنوا من يرتد منكم عن دينه فسوف يأتي الله بقوم يحبهم ويحبونه ﴾

٥٤ سورة المائدة.

فى هذه الآية، يهـدد الله تعالى الارتداد عن الدين بشىء مدهش.. هو الحب.. أن يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه.

إن الارتداد عـن الدين يعـيــد المرء إلى أحــضــان الشرك والخرافة، ولقد كان الله يستطيع أن يضع لهذا الارتداد عقوبة رادعة هى الحرق بالنار.. ولكنه سبحانه شاء أن يختار ماهو أقوى من النار..

وكان الحب هو الرد.

يريد الله تعالى أن يقول للمرتد أنه هو الخاسر، فسوف يأتى الله بقوم يحبهم ويحبونه.

إن الله يهدد أقسى مافى الوجود (وهو الشرك) بأرق وأقوى مافى الوجود وهو الحب.

إن الحب الإلهى والإيمان بالله مجد يتكرم الله به على عباده، فمن تقبل المجد بالشكر والحب فهو الفائز، ومن رفض نعمة الإيمان وارتد فهو الخاسر وحده، لقد خرج من صفوف المؤمنين وألقى بنفسه إلى الضياع.. وهاهو الله تبارك وتعالى يصف القوم الذين سيحتلون مكان المرتد، انهم قوم يحبهم الله ويحبونه.. وهم ﴿ أذلة على المؤمنين أعزة على الكافرين يجاهدون فى سبيل الله ولا يخافون لومة لائم ﴾.

هذه هى صفات المؤمنين، وهى صفات يهدد بها الله سبحانه كل ألوان الارتداء والشرك.

ان الحـيـاة صـراع بين قـوى الإيمان وقـوى الشـر..
والطريق واضح والمصـيـر مـعـروف لن ينتكس بعـقله ويختار الضلالة على الهدى..

اختلف العلماء فيمن نزلت فيـه الآية، قال القرطبى أن المقصـود بهم أهل الردة، وهؤلاء جـاءوا بعـد مـوت الرسـول، وقـال الحسن وقـتـادة أنهـا نزلت فى أبى بكر الصـديق وأصـحـابه، وقـال السـدى: بل نزلت فى الانصـار، وقيل انهـا اشارة لقـوم لم يكونوا مـوجـودين فى ذلك الوقت، وأن فى الآية اخـبـارا عن الغـيـب..
وبغض النظر عـمن نزلت فيـه الآية، إلا أنهـا آية عـامـة تصلح لكل زمان ومكان.

٢٤

﴿ وما من دابة فى الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم مافرطنا فى الكتاب من شىء ثم إلى ربهم يحشرون ﴾

٣٨ الأنعام.

تثبت هذه الآية أكثر من أمر..

إنها تثبت أن كل مافى الكون من خلائق ينقسمون إلى أمم أمثالنا، وأجناس أمثالنا..

وهى تثبت أن كل مايدب على الأرض ، أو يطير بجناحيه فى السماء سوف يحشر إلى الله تعالى، ربهم

ورب الناس ورب العالمين.

توقف القرطبى عند قوله تعالى:

﴿ إلا أمم أمثالكم ﴾ فقال إنها كذلك لكونها مخلوقات تدل على الخالق وتحتاج إليه وترزق من عطائه تماما مثل البشر.. وقال الزجاج انهم امم امثالكم فى الخلق والرزق والموت والبعث والقصاص، وفى هذه الآية إعجاز علمى، فحقيقة كون الطيور ودواب الأرض أنواعا وأمما ومجتمعات وأجناسا، هذه الحقيقة لم تكن معروفة ولا متاحة منذ ١٤ قرنا حين نزل الروح الامين بالقرآن على قلب الرسول، إنما اكتشفت هذه الحقائق خلال المائة سنة الأخيرة.. وهى حقيقة يعرفها علماء الأحياء البرية والمائية كما يعرفها علماء الطيور.. ﴿ مافرطنا فى الكتاب من شىء ﴾.

قيل إن الكتاب هو اللوح المحفوظ، وقيل إنه القرآن، وأقرب المعانى فى السياق إنه القرآن الكريم..

﴿ ثم إلى ربهم يحشرون ﴾.

هذا هو الجديد الذى لايعرفه علماء الأحياء والطيور، إن كل الدواب سوف تحشر مثلما سوف يحشر البشر، وسيقفون جميعا أمام ربهم وخالقهم وبارئهم من العدم، وسيتجلى عدل الله يومئذ، فسوف يقتص للشاة الجلحاء " غير ذات القرون" من الشاة القرناء " التى لها قرون".. إذا اعتدت هذه الاخيرة على الاولى.. لهذا الحد يبلغ عدل الله تبارك وتعالى مع الخلائق الأدنى، فكيف يكون عدله مع البشر.؟؟!!

٢٥

قال تعالى:

﴿ وإذا جـاءك الذين يؤمنون بآياتنا فـقل سـلام عليكم، كتب ربكم على نفسه الرحمة، أنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم ﴾ ٥٤ الأنعام.

تتحدث الآية عن عفو الله ورحمته، واحتفاله بالذين يؤمنون بآياته.. فهو يستقبلهم سبحانه بالسلام عليهم، وينبئهم أنه كتب على نفسه الرحمة.. جاء فى صحيح مسلم أن أبا سفيان مر على سلمان وصهيب

وبلال ونفر من المؤمنين فقالوا: والله ما أخذت سيوف الله من عدو الله مأخذها.. كان أبو بكر حاضرا فقال: أتقولون هذا لشيخ قريش وسيدهم ثم أن أبا بكر جاء إلى النبى فحدثه عما جرى فقال : يا أبا بكر لعلك أغضبتهم، لئن كنت أغضبتهم لقد أغضبت ربك".. فعاد إليهم أبو بكر يترضاهم ويعتذر. إن الذين كان لهم فضل السبق بالإسلام، هم جزء من الذين يؤمنون بآيات الله.. ولقد كرم الله هؤلاء وأولئك ، وجعل السلام من الله تعالى وروسله هو أول استقبال لهم..

بعد ذلك تجىء البشرى الكبرى فى قوله تعالى :

﴿ كتب ربكم على نفسه الرحمة ﴾ هذه البشرى هى التكريم الثانى لهم بعد سلام الله عليهم.. وهو تكريم أمر الله رسوله أن يبلغهم إياه ليطمئنوا.

ثم تجىء ذروة العفو والمغفرة فى قوله تعالى :

﴿ إنه من عمل منكم سوءا بجهالة ثم تاب من بعده وأصلح فانه غفور رحيم ﴾.

توقف العلماء أمام " من عمل منكم سوءا بجهالة فقال القرطبى أن المقصود بهذا خطيئة من غير قصد..

ولكن التفسير الأعمق أن الجهالة ملازمة لارتكاب الذنب، فما يذنب الانسان إلا من جهالة.. وعلى ذلك يكون النص شاملا لكل سوء يعمله المرء متى تاب من بعده وأصلح.

هنا يعد الله بالمغفرة والرحمة.. فقد كتب على نفسه الرحمة.. قيل كتب ذلك فى اللوح المحفوظ، وقيل أنه وعد بالمغفرة والرحمة، ووعد الله حق أوجبه على نفسه، تكرما منه وحنانا على الخلق...

٢٦

قال تعالى :

﴿ وكذلك فتنا بعضهم ببعض ليقولوا أهؤلاء منّ الله عليهم من بيننا ، أليس الله بأعلم بالشاكرين ﴾ ٥٣ الأنعام.

تتحدث هذه الآية عن فتنة الأغنياء وأهل الكبرياء.. وهى فتنة تكررت فى معظم قصص الأنبياء.. والفتنة كما يقول القرطبى هى الاختبار أو الامتحان، وقد امتحن الله الأغنياء والبارزين بالفقراء

والمغمورين.. وكانت النتيجة النهائية مؤسفة.. فقد رفض أهل الكبرياء من الأغنياء والبارزين هذه الدعوة الجديدة.

فى قصة نوح عليه السلام قال له الملأ (الأغنياء): ﴿ ومانراك اتبعك إلا الذين هم أراذلنا ﴾.

بعد ذلك حدثوه أن يطرد هؤلاء الفقراء الذين اتبعوه.. وحين رفض نوح وقف الأغنياء ضده.

وفى قصة صالح عليه السلام سأل الذين اسكبروا من قومه المؤمنين بصالح: أتعلمون أن صالحاً مرسل من ربه؟ فلما أجابوهم أنهم آمنوا بما أرسل به قال الذين استكبروا: ﴿ إنا بالذى آمنتم به كافرون ﴾.

لقد رفض الاغنياء والمستكبرون من قوم ثمود دعوة نبيهم صالح لأن الفقراء والضعفاء قد اتبعوه..

وتكررت هذه الظاهرة فى كثير من قصص الأنبياء، وكان الأغنياء يقفون ضد الدعوة التى اتبعها الفقراء

والضعفاء.

وهذا ماحدث فى دعوة محمد ﷺ، نفر المستكبرون وقالوا لو كان ماجاء به محمداً خيراً ماسبقونا إليه.. ولهدانا الله قبل أن يهديهم، فليس من المعقول أن يكون هؤلاء الضعاف الفقراء هم الذين يمن الله عليهم من بيننا، ويتركنا نحن أصحاب المقام والجاه والمال..

هذه هى فتنة الاغنياء، إنهم يتوقعون معاملة خاصة من الله، معاملة تضعهم فى أماكن الشرف الاولى، بعيدا عن هؤلاء الفقراء والضعفاء والمغمورين.. ولقد رد الله على الكبراء بقوله:

﴿ أليس الله باعلم بالشاكرين ﴾ إن الشكر لله والإيمان به هو الذى قدم الذين يستحقون من الفقراء والضعفاء، وآخر الذين لا يستحقون من الكبراء والأغنياء.

٢٧

﴿ وعنده مفاتح الغيب لايعلمها إلا هو، ويعلم ما في البر والبحر، ومـاتسقط من ورقة إلا يعلمـها ولا حبـة في ظلمـات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين ﴾ ٥٩ الأنعام.

نحن أمـام آية تتـحـدث عن علم الله المحـيط الشامل.. ويقول القرطبي في التدليل على أهميتها وجلالها أنه جاء في الخبر، إن هذه الآية لما نزلت نزل معها اثنا عشر ألف ملك..

والغيب هو كل ماغاب عنا ولم تدركه حواسنا الظاهرة، ويصف الله المؤمنين فى مواضع كثيرة من القرآن بأنهم الذين يؤمنون بالغيب، فجعل هذه الصفة قاعدة من قواعد الإيمان الأساسية.. ذات الله تبارك وتعالى غيب بالنسبة لنا، والساعة غيب، والحساب والثواب والعقاب كله غيب يؤمن به المؤمن، والجنة غيب والنار غيب.

وقد روى البخارى ـ كما يقول القرطبى ـ عن ابن عمر أن النبىﷺ تحدث عن خمسة مفاتح للغيب، وهى ما يجرى فى الأرحام، ومايحدث غدا، ومتى ينزل المطر وفى أى أرض يموت الإنسان ومتى تقوم الساعة.. هذه مفاتح تحدث عنها الرسول .. ولعله تلطف مع قومه لحدثهم عمالا يشق عليهم، أما مفاتح الغيب الحقيقية فلا يعلم عددها إلا الله ، وتوحى الآية بأن الحق يقصر معرفتها على نفسه وحده

سبحانه..

﴿ ويعلم مافى البر والبحر ﴾ البر والبحر هنا اشارة على سبيل المثال لا الحصر، ويدخل اذن فى الصورة كل الكواكب والنجوم والمجرات والأكوان والعوالم المرئية والعوالم الخفية..

﴿ وماتسقط من ورقة الا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس ﴾" ينبسط علم الله على كل شيء، حتى الأوراق التط تسقط من الأشجار فى الخريف، حتى الحب المختبىء فى ظلمات الأرض.. لا يخرج عن علمه شيء ولا يخرج من قبضته شيء.. كل شيء مسجل فى كتاب مبين..

قال العلماء ان الكتاب المبين هو اللوح المحفوظ..

إذا علم الإنسان أن كل مايجرى فى الكون وليس فيه ثواب أو عقاب مسجل فى كتاب مبين، فكيف بما فيه ثواب وعقاب؟

٢٨

﴿ سيقول الذين أشركوا لو شاء الله ما أشركنا ولا آباؤنا ولا حرمنا من شيء، كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ الأنعام ١٤٨.

تتحدث الآية عن آخر احتجاج يسوقه الذين أشركوا.. وهو احتجاج داحض كما سوف نرى.

عندما يضيق الخناق عليهم، وتسد الذرائع فى وجوههم، فإنهم يحيلون شركهم وضلال تصوراتهم على الله.

إنهم يقولون انهم مجبرون لا مخيرون، ولو كان الله يريد منعهم من الشرك والضلال لمنعهم منه بقدرته

التى لا يعجزها شىء.. هذا الموقف الذى يقع فى نهاية البشرية، يذكرنا بموقف وقع فى بداية البشرية.
موقف ابليس حين قال لله ﴿ فبما أغويتنى ﴾
لقد نسب إبليس غوايته التى ارتكبها الى الله، وقال نفس مقالة المشركين.. لو كان الله يريد أن يمنعنى من الخطأ لفعل...

إن رد إبليس واحتجاج المشركين من البشر يتجاهل إن الإنسان حر يستطيع أن يختار، وإن الجن مثل الإنسان أحرار ويستطيعون الاختيار.. لقد خلق الله الإنسان ووهبه نعما لا تعد ولا تحصى.
من هذه النعم العقل والإرادة والوعى والقدرة على الاختيار..

ليس الانسان حجرا ملقى فى الصحراء لاحول له ولا قوة، ليس هذا صحيحا، الإنسان مخلوق قادر على الفعل وقادر على الاختيار، وقادر على التمييز بين الضلال والهدى، والكفر والايمان.. وبالتالى فان الاحتجاج بمشيئة الله هنا كذب..

﴿ كذلك كذب الذين من قبلهم حتى ذاقوا بأسنا ، قل هل عندكم من علم فتخرجوه لنا ، إن تتبعون إلا الظن وإن أنتم إلا تخرصون ﴾ يؤكد الحق كذب مقولة المشركين ، ويبين أن المقولة لا تستند لعلم إنما هى تتبع ظنهم فى أنها يمكن أن تنقذهم من العذاب، الصحيح إن الله شاء أن يتركهم لحريتهم واختيارهم، هذا ماشاء الله سبحانه، أما هم ففعلوا مافعلوه بإرادتهم واختيارهم.

٢٩

قال تعالى:

﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم، وانه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ أقسم الله تبارك وتعالى ببعض ماخلق، تعظيما لما خلق وبيانا للإعجاز المنطوى فى الخلق.

من بين ما أقسم به سبحانه مواقع النجوم.

لم يقسم بالنجوم رغم إعجازه فى خلقها، إنما أقسم بمواقعها لأن مواقعها أشد إعجازا فى الخلق منها ذاتها.

قال تعالى: ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ وهذا تأكيد للقسم ﴿ وأنه لقسم لو تعلمون عظيم ﴾ تأكيد آخر لعظمة القسم، أما قوله: ﴿ لو تعلمون ﴾ فينفى عن البشر يومئذ هذا العلم..

إن علم الفلك حين نزل القرآن منذ ١٤ قرنا كان لا يعرف مايعرفه اليوم عن مواقع النجوم.

إن أقرب نجم إلى الأرض هو الشمس.

ويسير ضوء الشمس بسرعة ٣٠٠ ألف كيلو متر فى الثانية الواحدة، وهذه أعظم سرعة نعرفها فى الكائنات،

فى علم الشهادة، لا يوجد شىء أسرع من الضوء، إن سرعته مهولة..

يجرى ضوء الشمس حتى يصل إلى الأرض فى ٨ دقائق.. ماهو أقرب نجم إلينا بعد الشمس..؟

هناك نجوم بدأ ضوؤها يسير إلينا منذ أربعة آلاف سنة، وقد استمر الضوء يجرى بسرعة ٣٠٠ ألف كيلو متر فى الثانية، حتى وصل إلينا بعد أربعة آلاف سنة وهناك نجوم تبعد عنا ٤ ملايين سنة ضوئية، وهناك نجوم تبعد عنا أضعاف أضعاف هذا القدر، وهذا يعنى كما يقول العلماء أن هناك نجوما نراها اليوم بينما هى قد ماتت وانطفأت وما نراه هو شعاعها الذى رحل عنها منذ ملايين السنين ولم يصل إلينا إلا منذ سنوات، نستطيع لو أطلقنا خيالنا أن نتصور الأبعاد السحيقة لمواقع النجوم، وهى أبعاد ومسافات لم يكن العرب يعرفون عنها شيئا، ولم يكن خيالهم يستطيع أن يتصور أبعاد حقيقة القسم وجلاله.. ولكن مرور القرون وتقدم العلوم كشف النقاب أكثر عن حقيقة القسم، وأولى الناس بادراك عظمة القسم هم علماء الفلك.

٣٠

قال تعالى: ﴿ والسماء بنيناها بأيد وانا لموسعون ﴾

كيف فهم القدماء من أسلافنا هذه الآية حين نزلت عليهم..

لقد فسروها على النحو التالى.. إن الله بنى السماء بيديه سبحانه (أى بقدرته) أما قوله " وإنا لموسعون" فتعنى وإنا لقادرون..

هذا الفهم كان جائزا فى عصره، لكنه فى عصرنا لا يعبر عن الحقيقة التى يتسع لها النص بعد تقدم علوم الفلك.

إن المعنى الظاهرى لنص الآية يفيد أن الكون يتسع .. ويتمدد، ولكن علماء الزمان القديم والمفسرين لم يكونوا يتصورون كيف يمكن أن يحدث هذا ومن ثم استبعدوا المعنى الظاهر وصرفوا

﴿ وإنا لموسعون ﴾ إلى معنى القدرة.. فقالوا إنها تعنى أن الله قادر على ذلك..

أما اليوم، بعد المراحل التى قطعها علم الفلك فقد صار الأمر مفهوما ، لقد أظهر الرياضى البلجيكى "ليتمر" أن الكون كما يصوره اينشتين له خواص كخواص فقاعة الصابون.. فهو غير ثابت الاتزان،بمعنى أنه لايستطيع أن يظل ساكنا، إن الكون بمجرد خروجه لحيز الوجود يأخذ حجمه فى الازدياد والتمدد ولا مناص له من أن يستمر فى الاتساع إلى مالانهاية.. هذه الحقيقة الجديدة التى سميت "بالكون المتمدد" تعنى أن الكون لا يزداد حجمه فحسب وانما تزيد سرعة تمدده أيضا، وإذن فلابد أن يأتى وقت لا يستطيع فيه شعاع الضوء أن يلحق بالكون الذى يتسع، ففى الوقت الذى يكون الضوء قد قطع مليون ميل، يكون محيط الكون قد اتسع بمقدار ٢ مليون ميل..

أليس هذا الكلام بيانا وترجمة لقوله سبحانه :

﴿ والسماء بنيناها بأيد وإنا لموسعون ﴾..

إن اتساع السماء وتمددها يشبه تمدد فقاعة

الصابون، كلما تمددت رق غلافها حتى يحين أوان انفجارها فتنفجر.. وهذا مانعرفه نحن بيوم القيامة، وهو يوم يختلف فيه نظام الكون، ويكون قد اجتاز طريقه من المهد إلى اللحد شأننا جميعا، فالكون لا يعرف تغيرا سوى التغير بالكبر، ولا تقدما سوى التقدم نحو القبر.. وهذا قانون الكائنات جم

٣١

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين، لا شريك له، وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين ﴾ سورة الأنعام آية ١٦٢، ١٦٣.تعبر هذه الآية عن سلوك المسلم فى الدنيا.. وهى تنطوى على أمر صدر للرسول أن يقول كلمة التوحيد الفاصلة، وأن يعبر عن تجرده الكامل لله، بكل نبض فى القلب وكل حركة فى الحياة..

﴿ قل إن صلاتى ونسكى ﴾.. قال القرطبى المراد بها صلاة الليل، والنسك بمعنى الدين والعبادة.. وقيل إن النسك هو جميع أعمال البر والطاعات ﴿ ومحياى ومماتى لله رب العالمين ﴾ ليست الصلاة والنسك هما وحدهما الخالصين لرب العالمين، إنما هو المحيا أيضا والممات.. كل ما أعمله فى حياتى أو موتى هو لله رب العالمين..

﴿ لاشريك له، وبذلك أمرت ﴾.ينفى المسلم عن نفسه كل أنواع الشرك، ويفرد الله وحده سبحانه بالعبادة والسعى والقصد والحركة والنية.

وقد استدل الامام الشافعى على افتتاح الصلاة بهذه الاية، من حديث على رضى الله عنه " أن النبى ﷺ كان إذا افتتح الصلاة قال: ﴿ إنى وجهت وجهى للذى فطر السماوات والأرض حنيف وما أنا من المشركين ﴾، إن صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى لله رب العالمين لا شريك له وبذلك أمرت وأنا أول المسلمين" يستحب للمسلم إذن أن يفتتح صلاته بعد التكبير بهذه الايات الكريمة.. حتى يتذكر دائما ن شرفه كامن فى اخلاص العمل لله، سواء كان هذا العمل صلاة أو نسكا أو حياة أو عملا أو موتا أو نشورا ﴿ وأنا أول المسلمين ﴾. المقصود هو الرسول وقد اختلفت التفسيرات حول أول المسلمين، قيل هو أول المسلمين من أمته، وقيل هو أول من يدخل الجنة، وقيل هو أول من أخذ الله ميثاقه منه ﴿ وإذ أخذنا من النبيين ميثاقهم ومنك ومن نوح ﴾ فتقدم على بقية الأنبياء، وقيل أن أول المسلمين تعنى هنا أكمل المسلمين، بمعنى أن الاولوية هنا رتبة رفيعة وليست ترتيبا زمنيا.

"وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين"

رقم الايداع ٨٦٤١ / ٩٥
977-220-118 - 6

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطى شبرا القاهرة
الرقم البريدى ـ ١١٢٣١